بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله، نحمده تعالى حق حمده – سبحانه – لم يزل بديعًا خلاقًا، أودعَ البريَّة مشاعرَ نوازِعَ وأشواقًا، وأعقبَها جزاءً وِفاقًا، ربِّي لك الحمدُ العظيمُ لذاتِك، حمدًا وليس لواحدٍ إلاكَ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعمُر القلبَ إشراقًا، والروحَ ندًى وإيراقًا، وأشهد أن نبينا وحبيبَنا وسيدَنا محمدًا عبد الله ورسوله أزكَى العالمين أرُومةً وأعراقًا، صلَّى الله وبارَك عليه نَهَلَنا من الحب الطهور كأسًا دهاقًا، وعلى آله الطيبين المُترَعين حنانًا وإشفاقًا، وصحابته الغُرِّ الذين انبَثَقَ بهم الحقُّ انبثاقًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ تنافُسًا في الجِنان واستباقًا، وسلَّم تسليمًا كثيرًا أبدَ الدهر رقراقًا.

أما بعد:

جمع الإمام الغزالي بين الريادة الفلسفية والموسوعية الفقهية والنزعة الصوفية الروحية، اتسم بالذكاء وسعة الأفق وقوة الحجة وإعمال العقل وشدة التبصر، مع شجاعة الرأي وحضور الذهن، كل ذلك أهّله ليكون رائدًا في تلك العلوم المختلفة والفنون المتباينة؛ فكان الغزالي فيلسوفا وفقيها وصوفيا وأصوليا، يحكمه في كل تلك العلوم إطار محكم من العلم الوافر والعقل الناضج والبصيرة الواعية والفكر الراشد، فصارت له الريادة فيها جميعا، وأصبح واحدا من أعلام العرب الموسوعيين المعدودين.

تميز الغزالي الفيلسوف بالجرأة والشجاعة والذكاء؛ فقد واجه الاتجاهات الفكرية المختلفة التي سادت في عصره بذكاء وشجاعة نادرين، وكان نقده مركزًا على نقد الفرق المتطرفة من منطلق إخلاصه للإسلام، وكان في نقده لها يتسم بالنزاهة والموضوعية، وأثبت الغزالي في رده على الفلاسفة مخالفتهم للإسلام في بعض الجوانب، وحذر الناس من اتباع طريقتهم من غير مناقشة أو تمحيص، كما كشف عن أباطيل الباطنية، وفضح ضلالاتهم بعد أن درس أسرار مذهبهم وعرف حقيقة أفكارهم، وكان أمر تلك الفرقة قد استشرى

واستفحل خطرهم سياسيا ودينيا، وقد أراد الغزالي من رده عليهم تحجيم خطرهم والتقليل من نفوذهم الديني والسياسي بعد تعريتهم والكشف عن زيفهم وضلالهم وتوضيح أهدافهم.

وكان الغزالي في فلسفته يعبر عن شغفه بالعلم والبحث عن الحقيقة، وقد اتبع منهجا عقليا يقوم على فكرتين أساسيتين هما: الشك، والحدس الذهني.

وقد عبر عن ذلك بوضوح في قوله: «إن العلم اليقيني هو الذي يُكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم».

ويعبر عن تجربة البحث عن الحقيقة التي تبدأ عنده بالشك فيقول: «فأقبلت بجدٍّ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وأنظر: هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا».

وهو يفسر ذلك بأنه «من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبقى في العمى والضلال».

وهذا المنهج الذي اتبعه الغزالي منذ أكثر من تسعة قرون شديد التشابه بما قدمه الفيلسوف الفرنسي ديكارت وهو ما يؤكد تأثره بالفيلسوف الإسلامي الكبير وأخذه عنه؛ فقد عاش الفيلسوفان التجربة المعرفية ذاتها، وإن كان فضل السبق والأصالة يظل الغزالي، فعبارة الغزالي الشهير «الشك أول مراتب اليقين» التي أوردها في كتابه «المنقذ من الضلال» هي التي بنى عليها ديكارت مذهبه.

ويرى الإمام الغزالي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] هو التعليم والإرشاد.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من جمع العرب حوله في حلقة لأخذ العلم، فلم تكن العرب في الجاهلية تعرف الاجتماع لهذا الغرض.

لذلك اعتبر الغزالي التربية والتعليم رسالة؛ إذ على المربي أن لا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يُعَلِّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه مِنَّه عليهم وإن كانت الْمِنَّة لازمة عليهم.

وفي نظر الغزالي إن ثواب العلم أعظم من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولقد حذَّرَ علماء المسلمين من طلب العلم لأغراض دنيوية، واعتبروا أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه في جناب النعيم.

وليس هناك ما يمنع من أن تكون رسالة التعليم – التي تقوم على اقتناع داخلي عميق بما يؤديه صاحبها من عمل – مهنة أو وظيفة حيث أن مثل هذا العمل لابد وأن يتحول إلى رسالة لطالما حدد المعلم أهدافه على ضوء إلتزامه بعقيدة الإسلام. ولذلك نتيجة لتطوير المجتمع الإسلامي وتعقيدات الحياة منه لم يجد الغزالي حرجاً في إباحة أخذ الأجرة.

ولئن أباح الغزالي الأجر على إفادة العلم فإنما كان ذلك من منطلق حرصة على نشر العلم وإفساح المجال للمدرس كي يفرغ قلبه عن العلائق التي قد تحول دون القيام برسالة التربية والتعليم ونشر تعاليم الدين.

أما المربي الفرنسي المعاصر روينه أوبير فيقول: (التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنسان في كائن إنساني آخر وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج).

ويقول الإمام الغزالي: (الصبي أمانة عند والدية وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما يُنقش، ومائل لكل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم والوالي له).

ويعكس كلام الغزالي فهمه للتربية الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** »[1].

---

(١) أخرجه البخارى (٤٥٦/١، رقم ١٢٩٢)، ومسلم (٢٠٤٧/٤، رقم ٢٦٥٨)، وأبو داود (٢٢٩/٤، رقم ٤٧١٤).

فالمسئولية إذن حسب الغزالي مسئولية الأبوين أو المربي في تحديد مصير الطفل لجهة بناء شخصيته القادرة على القيام بأعباء الخلافة.

فالتربية عند الغزالي عملية رعاية وبناء لشخصية الطفل بحيث يصبح فرداً صالحاً في مجتمع صالح متوازن متطور قائم على أسس ثابتة تراعي طبيعة الإنسان القائمة على ضرورة التوازن بين متطلبات الجسد والروح إلى جانب الدنيا والآخرة.

ويحدد الغزالي مفهوم التربية بإيجاز ووضوح عندما يقول: (ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الذرع ليحسن نباته ويكمل ريعة).

فالتربية عملية إجتماعية، وهذا ما يجعلها تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً للحضارة والثقافة والقيم التي تسودها، ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض، إذاً فهي وثيقة الصلة بالمجتمع تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه وقيمه ومعتقداته.

وسيراً على خطى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ومن بعدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم، وبالتالي أهمية التربية وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنه (رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق، بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع).

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد.

وتجلي ذلك من خلال ما جاء في رسالة « **أيها الولد** » وكتاب «**إحياء علوم الدين**» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كما ذلك ايماناً منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

obeikandi.com

فرسالة «**أيها الولد**» للإمام الغزالي من الكتب المشهورة والذائعة الصيت خاصة بين أهل الذوق الصوفي. وهي عبارة عن مجموعة من النصائح والإرشادات وجهها الغزالي لأحد تلامذته لتكون دستورًا ومنهجًا وطريقة له في حياته. وهي رسالة عظيمة الفائدة في أصول التربية في الإسلام، وفيها الحض على طلب العلم وتعهده بالعمل به، وبيان أشرف العلوم التي يجب الاشتغال بها، وفيها دعوة إلى تزكية النفس، ووسائل هذه التزكية.

وقد وفقنا الله تعالى في العثور على شرح رائع لهذا الكتاب القيم، أبدع فيه مؤلفه، فقد قام بشرحها الشيخ عبد الرحمن بن محمد المشهور بـــ(صبري) شرحًا رائعًا بديعًا، وأسماه «**أيها الأخ**»، وقد شرح رسالة الإمام الغزالي بناء على إلحاح طلب تلامذته عليه في شرحها وإماطة اللثام عن دررها.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذا الكتاب الماتع في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلَّى الله وسلم على سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

obeikandl.com